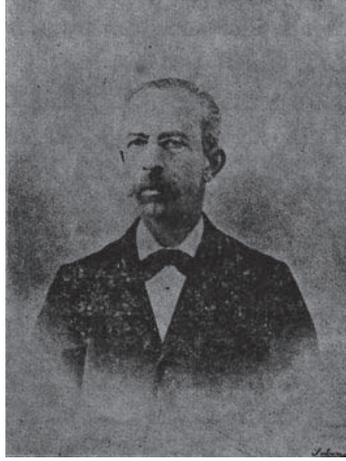


الفصل الخامس عشر

الشيخ إبراهيم اليازجي

ولد (رحمه الله) في ٢ مارس سنة ١٨٤٧م في بيروت، ونشأ فيها وتلقى مبادئ العلم على أبيه اليازجي الكبير؛ ولا سيما أصول اللغة وقواعدها، على أن أكثر ما اكتسبه من العلوم واللغات إنما قرأه على نفسه واكتسبه بجدته وذكائه، وقد ورث الخيال الشعري عن أبيه، فنظم الشعر وهو صبيٌّ، وزاول النظم في شبابه، فلما قارب الكهولة عدل عنه إلى الاشتغال بسواه إلا ما قد ينظمه لحادث أو باعث، وكانت قد اشتهرت منزلته في جودة النظم، فتقاضى إليه الأدباء يستفتونه أو يستشيرونه أو يحكمونه في قصيدة أو مسألة، ولم يكن مجلسه يخلو من بحث أدبي أو شعري، فتحقق به حلقة من أدباء بيروت ولبنان، وكلهم أذان تسمع ما يتلوه عليهم أو يصدر حكمه فيه من شعر أو نثر، غير ما كان يرد عليه في هذا الشأن من رسائل الشعراء وغيرهم مما كاد يستغرق وقته ويشغله عن سواه، فصمم على ترك الشعر وتفرغ لدرس اللغة وآدابها وعلومها، فعكف على المطالعة، فدرس الفقه الحنفي على الشيخ محيي الدين اليافي أحد مشاهير أئمة بيروت.

وكانت الصحافة البيروتية في أوائل نهضتها، ومن جرائدها — يومئذ — «النجاح»، فعُهد إليه بتحريرها سنة ١٨٧٢م، فظهر اقتداره على الإنشاء العصري مما لم يعهد الناس مثله في المرحوم أبيه، فضلاً عن تمكنه من قواعد اللغة ومعاني ألفاظها، وكان المرسلون الأميركيون لما أرادوا نقل التوراة إلى اللسان العربي في أواسط القرن الماضي استعانوا في تنقيح مسوداتها وضبط عبارتها من حيث اللغة والإعراب بالمرحومين الشيخ ناصيف والمعلم بطرس البستاني، ثم بالشيخ يوسف الأسير، ولكنهم التزموا الترجمة الحرفية، ولم يبيحوا للمصححين التصرف بالأسلوب، فجاءت عبارة ترجمتهم ضعيفة.



الشيخ إبراهيم البيازي ١٨٤٧م-١٩٠٦م.

ثم عمد الآباء اليسوعيون إلى ترجمة الكتاب المقدس ترجمة كاثوليكية، فاستعانوا بالشيخ إبراهيم، وفوضوا إليه تنقيح العبارة من حيث الإنشاء، فضلاً عن الضبط النحوي واللغوي، ففضى في ذلك، وفي تصحيح كتب أخرى، تسع سنين، وقد درس اللغة العبرانية على نفسه لتطبيق عبارة التعريب على الأصل، فجاءت ترجمة اليسوعيين أصح ترجمات التوراة العربية لغة، وأفصحها عبارة، وأجزلها أسلوباً.

ويصدق ذلك على الخصوص في العهد القديم، أما العهد الجديد فقد أخبرنا (رحمه الله) أنهم لم يطلقوا يده في تنقيحه كما يشاء، وكان في أثناء ذلك وبعده يعلم المعاني والبيان وآداب اللغة في المدرسة البطريركية، فتخرج عليه جماعة من أذكى الشبان، اشتهر بعضهم بالصحافة، وبعضهم بالتجارة أو الإدارة، وتمم بعض ما تركه والده غير كامل من المؤلفات أو الشروح؛ وأشهرها ديوان المتنبي، وكان والده قد علّق على بعض أبيات المتنبي شرحاً موجزاً، فعكف هو على إتمامه سنة ١٨٨٢م، فأتمه في أربع سنوات شرحاً، وطبعه، وهو مشهور بضبطه وما ألحقه به من النقد الشعري.

وكانت الصحافة السورية قد نمت وظهرت مجلة الجنان، ثم مجلة المقتطف، وتحدث بهما وبما استفادوه منهما، فأحب الشيخ الرجوع إلى الصحافة العلمية، وكان

الدكتور بوسط الجراح الشهير قد أنشأ في بيروت مجلة طبية سماها «الطبيب»، فاتحد الشيخ مع صديقيه المرحوم الدكتور بشارة زلزل والدكتور خليل سعادة نزيل القاهرة وأصدروا الطبيب معاً سنة ١٨٨٤م، نشر فيه الشيخ — فضلاً عما كان يكتبه زميله من المقالات الطبية والعلمية — مقالات لغوية وأدبية إنشأوها من الطبقة الأولى، وحجب الطبيب عن قرائه في السنة التالية، ثم استأنف إصداره الدكتور إسكندر بك البارودي، ولا يزال يصدر في بيروت حتى الآن.

ترك الشيخ تحرير الطبيب ونفسه تتطلب الشهرة الصحافية، ورأى الآداب العربية والصحافة قد تحولتا إلى مصر بما أطلق فيها من حرية الأقلام والأقوال، فعزم على الحياء إليها لإنشاء مطبعة ومجلة علمية، واتفق على ذلك مع الدكتور زلزل شريكه في الطبيب، فبرح الشيخ مدينة بيروت سنة ١٨٩٤م، وعرج ببلاد الإفرنج، أعدَّ بها بعض ما يقتضيه مشروعهم من الآلات ونحوها، ثم جاء القاهرة وأنشأ مع زميله — المشار إليه — مطبعة البيان، وأصدر مجلة البيان سنة ١٨٩٧م، ثم حجبها بعد سنة وافترقا. واستقل الشيخ بإنشاء «الضياء» سنة ١٨٩٨م، وهي مجلة علمية أدبية صحية صناعية اشتهرت بمتانة إنشائها وفصاحة عبارتها وبلاغة أسلوبها — كما سنبينه، وما زالت تصدر حتى حال الأجل دون إصدارها بعد انقضاء عامها الثامن، وكان (رحمه الله) قد أصيب بداء الروماتزم في أواخر الصيف الماضي بعد تحرير آخر أعدادها، فلما استتبأ الشفاء أعلن توقيفها ريثما يبلى من الداء، وما علم أنه الداء الأخير، ففاضت روحه في المطرية بعد ظهر ٢٨ ديسمبر سنة ١٩٠٦م وهو في الستين من عمره ولم يتزوج، ولم يبق من بيت اليازجي إلا الشيخ حبيب ابن أخيه الشيخ خليل، فاحتفل أصدقاؤه ومريده بدفنه في اليوم التالي احتفالاً يليق بمنزلته، فحملوا جثته بقطر خاص من المطرية إلى القاهرة، ومشى في جنازته من المحطة جمهور كبير من خاصة الأدباء والوجهاء، وأوصوا أن يرجئوا التأبين إلى يوم آخر يعين في وقت آخر، ثم احتفل في تأبينه بعض المحافل الماسونية بمصر والإسكندرية، فضلاً عن حفلات التأبين وغيرها، وأمر سمو الخديوي سر تشريفاتي سموه أن يكتب إلى الشيخ حبيب كتاب تعزية، هذا نصه:

جناب الفاضل الشيخ حبيب اليازجي:

لما علم جناب الخديوي العالي بتعظيم رزء اللغة العربية وآدابها لانتقال العلامة الشيخ إبراهيم اليازجي من هذه الديار الفانية إلى الدار الباقية، أظهر

مزيد أسفه على انقضاء تلك الحياة الطيبة الحافلة بجلائل الخدم للعلوم العربية في القطرين مصر والشام، وأمرني سموه الفخيم أن أبلغ جنابكم وسائر أعضاء الأسرة اليازجية تعزيته السامية، وإني أشترك مع قراء العربية في تقديم واجب التعزية إلى حضراتكم.

سر تشريفاتي الخديوي
أحمد زكي

والفقيه (رحمه الله) حائز على الوسام العثماني من جلالة السلطان، وعلى نوط العلوم والفنون من جلالة ملك أسوج ونروج، وانتدبته كل من الجمعية الفلكية في باريس وفي أنفرس والجمعية الفلكية الجوية في السلفادور أن ينتظم في عضويتها.

أخلاقه وصفاته

كان ربع القامة، نحيف البنية، عسبي المزاج، حاد البصر، زكي الفؤاد، سريع الخاطر، حاضر الذهن، لطيف المحاضرة، حلو المفاكهة، لا يملُّ مجلسه، يطرب للنكتة الأدبية ويضحك لها، وكان مع ذلك شديد الحرص على كرامته، لا يحتمل مسّها في جدٍّ أو هزل، تلميحًا ولا تصريحًا، وكان سريع الانتباه لما يتخلل أحاديث المجالس من الإشارات الأدبية، وكان متعطفًا بطعامه وشرابه، ولولا ذلك ما صبر على معاناة صناعة القلم بضعة وأربعين عامًا مع نحافة بنيته.

وقضى أعوامه الأخيرة يقتصر في عشائه على كأس من اللبن خوف التثقل على معدته، وإنما العمدة في الغذاء على أكلة الغداء، ولم يكن نهماً، وأما في الصباح فيتناول طعامًا خفيفًا ويعكف على العمل، فإذا تغدى الظهر شرب قهوته ودخن شيشته ونام، ثم ينهض ويقضي بقية النهار في الراحة، أو في عمل لا يتعبه، ويخرج لترويح النفس في بعض الأندية يلعب بعض معارفه بالنرد على سبيل التسلية، أو يقضي ذلك الوقت بالمباشطة والمفاكهة، فإذا آن العشاء عاد إلى منزله فيتناول اللبن ويستأنف العمل، وكان مولعًا بتدخين الشيشة في أثناء الكتابة، كما كان والده مولعًا بالقهوة وتدخين التبغ في ذلك الحين.

وكان عفيف النفس، كثير الإباء، ظاهر الأنفة إلى حد الترفع؛ ولا سيما في ما يتعلق بالارتزاق، يعدُّ مجاملة الناس في سبيل الكسب تملقًا، وكلما قلَّ ماله زادت أنفته وعظم

إبائه، وكثيراً ما أراد أصدقاؤه إقناعه أن سنة الارتزاق تقضي بمجاملة الناس والتقرب من كبارهم بالحسنى، فربما أطاع ناصحه برهة ثم يعرض له خاطر فيعود إلى الإباء، ولولا ذلك لعاش في سعة وراحة، ولكن القناعة كانت من أكبر أسباب سعادته.

على أنه كان يشغل بالقلم التماساً لتلك اللذة التي كثيراً ما أغوت أصحاب القرائح واستنزفت قواهم، فعاشوا فقراء وماتوا أعلّاء، ولو أراد الشيخ مجرد الارتزاق لكان له مما فُطر عليه من دقة الصناعة اليدوية خير سبيل، بل لم يكن يعدم منصباً في بعض مصالح الحكومة، وقد ندب أن يكون قائمقام على مدينة زحلة من لبنان سنة ١٨٨٢م فلم يقبل.

ومن إباهه وكرمه أخلاقه أنه كان صادقاً في معاملته على اختلاف وجوهها، لا يخلف ولا يخلف، أميناً في ما ينقله أو يقتبسه من الآراء أو الأقوال، ينسب الفضل إلى صاحبه، وكان عكس ذلك في ما يفعله هو مع الآخرين من تصحيح مقالة أو تنقيح عبارة، فإنه كان شديد الإنكار لذلك، ولكن ديباجته كانت تنمُّ عليه؛ لظهور أسلوبه من خلال السطور.

وكان براً بأبيه، وقد خدم اسمه وزاد في شهرته بما أتمه من آثاره أو شرحه من كتبه، فأنفق في سبيل ذلك جانباً كبيراً من وقته، وأتم شرح المتنبي، أو هو شرحه كله، فنسب الشرح إلى والده، واستبقى لنفسه فضل التتيميم.

قرائحه ومواهبه

أظهر قرائحه الإتقان الفني؛ فإنه كان متأنقاً في إتقان ما يتعاطاه من صناعة أو أدب أو شعر؛ سواء اصطنعه بيده أو أنشأه بقلمه أو نظمه بقريحته، بما يعبر عنه الإفرنج بقولهم Artist، فكنت ترى التأنق والإتقان ظاهرين في كل عمل يعمله، حتى في لباسه وجلوسه ومشيه وكلامه وطعامه، وكل ذلك فرع من تأنقه في الصناعة اليدوية، فكان حفاًزاً ماهراً ومصوراً متقناً، ظهر ميله إلى ذلك منذ حدثته.

حدثنا صديقنا المستر إدوار فان ديك، نجل أستاذنا الدكتور فان ديك، أنه عرف الشيخ الفقيد منذ نيف وأربعين سنة؛ إذ كان يتردد على مطبعة الأميركيان في بيروت، وإدارتها — يومئذ — بيد الدكتور فان ديك، وكانت للشيخ ناصيف علاقة حسنة بالأميركان من التعليم بمدارسهم والتصحيح في مطبعتهم، قال صديقنا — المشار إليه — أنه كان يلاحظ في الشيخ إبراهيم من ذلك الحين ميلاً خصوصياً لصناعة الحفر،

وكثيراً ما كان يحفر الأختام على سبيل الغية، ثم حفر الصور والنقوش، وخطر له يوماً أن يصطنع روزنامة عربية تعلق على الحائط من قبيل الروزنامات الشائعة، ولم تكن معروفة — يومئذ — بالعربية، فاستأذن الدكتور فان ديك في استخدام بعض أدوات المطبعة لحفر الأحرف والأشكال اللازمة لهذا العمل، فأمر رئيس العمال في ذلك العهد موسى عطا أن لا يمنعه شيئاً يحتاج إليه في هذا السبيل، فتأنق الشيخ في رسم حروف الروزنامة وأرقامها حتى أتمها على أجمل ما يكون، وهي أول روزنامة عربية من هذا النوع.

على أن تأنقه ظهر — أولاً — في خط يده، فكان جميل الخط من حدائته، وظل خطه جميلاً إلى آخر أيامه، وقاعدته فارسية، والذين يقرءون رسالة بخطه لا يكون إعجابهم بجمال ذلك الخط أقل من إعجابهم ببلاغة أسلوبه، ومن هذا القبيل تأنقه في التصوير باليد، حتى صور نفسه عن المرأة صورة ناطقة، رأيناها معلقة في منزله، وأهم ما نجم من ثمار هذه القريحة اصطناع الحروف الحديثة التي سنذكرها في جملة آثاره.

إنشاؤه

ومن قرائحه اقتداره الغريب على الإنشاء المرسل مع سلامة ذوقه في انتقاء الألفاظ، وأسلوب عبارته جمع بين المتانة والبلاغة والسهولة، يشبه أسلوب ابن المقفع شبيهاً إجمالاً، ولكنه من أكثر وجوهه خاص بالشيخ، على أن إنشاء ابن المقفع لم يصل إلينا كما كتبه صاحبه، ولكنه جاءنا بعد أن هذبت أعلام المنشئين ونقحته قرائح اللغويين زهاء اثني عشر قرناً، أما الشيخ فلم يمس عبارته سواه، ناهيك بما يعترض الكاتب اليوم من المعاني الجديدة التي لم يعرفها القدماء وليس في المعجمات لفظ يدل عليها، مما يقف عثرة في طريق المنشئين.

أما فقيدنا اليازجي فكان يتخطى هذه العقبات على أهون سبيل، فجاءت عبارته خالية من غريب اللفظ ووحشي التركيب، وقد يأتي باللفظ الغريب فيضعه موضعاً يجعله مألوفاً، فلا يمجُّه السمع ولا ينكره الفهم، فكان أسلوبه بليغاً بلا تقعر أو تعقيد، سهلاً بلا ضعف أو ركافة، متسلسلاً متناسباً متناسقاً، يطابق ما قدمناه من توخيه التأنق والإتقان في كل شيء، ورغبته في الإتقان حملته على التأنق في نشر ما يكتبه، فكان لا يرسل المقالة إلى المطبعة إلا بعد تنقيحها وتهذيبها، ثم يكتبها بحرف

واضح جلي كأنه سلاسل الذهب؛ حذرًا من الوقوع في الخطأ، فأل ذلك إلى إبطائه في إخراج بنات أفكاره، وقلَّ مقدار ما كان يرجي الحصول عليه من ثمار علمه ودرسه. ومما حمله على المبالغة في التأني، أنه كان شديد الوطأة في انتقاد ما يعرض له من الغلط اللغوي في ما يقرأه من الصحف أو الكتب، وذلك طبيعي في من يخصص بحثه في فرع من فروع العلم يستقصيه ويدرس دقائقه، فيكثر ما يقع عليه نظره من الغلط في ما يكتبه سواه في ذلك الفرع، فلا يصبر على السكوت عنه؛ ولا سيما إذا كان عصبى المزاج مطبوعًا على التأنيق والإتقان مثل فقيدنا، فالانحراف عن الصواب كان يؤلمه، ولا يشفي ألمه غير النقد، ويمتاز نقده بشدة اللهجة، وبما يتخلله من قوارص الكلم، لا يراعي في ذلك صداقة ولا عهدًا، وسبب تلك الشدة — على الغالب — غيرته على اللغة وإخلاصه في خدمتها، فلما كتب «أغلاط المولدين» لم يستثن والده ولا نفسه؛ لأنه كان يرى الغلط اللغوي أو النحوي من أكبر السيئات، ويرى السلامة منهما من أكبر الحسنات؛ ولذلك كان يثني على شعر ابن الفارض، ويعجب بشعر المتنبي على الخصوص؛ لقلته ذلك الغلط فيهما، وربما احتقر شعر شاعر مطبوع أو مقالة عالم كبير إذا رأى فيها غلطًا لغويًا أو نحوياً.

فكان يبالغ في تنقيح ما يكتبه ويتأنق في إتقانه خوفًا من الانتقاد، ولعله تنبه لذلك على الخصوص منذ أخذ في الدفاع عن والده لما انتقده الشيخ أحمد فارس وشدد النكير عليه، وكان الشيخ إبراهيم في إبان شبابه، فأجاد في الدفاع، وتعود الحذر من الخطأ بالمراجعة والتنقيح من ذلك الحين، فاعتبر مع سعة علمه بمفردات اللغة وجزالة أسلوبه كم تكون لغته صحيحة وعبارته بليغة فصيحة، حتى أصبح استعماله حجة وإنشائه قاعدة، فلا عجب إذا دعونه حجة اللغة وإمام الإنشاء، وأكثر ما يكتبه مرسل سهل، وإذا سجع فلا تجد في تسجيعة تكلفًا، وإليك أمثلة من ذلك، وهو من قبيل الشعر المنثور:

قال من مقالة في مصير الأرض:

واعتر ذلك في الأرض وما يؤلف أديمها من الجواهر، ويشتمل عليه جوها من العناصر، وما يعيش عليها من النبات القائم في الصحراء، والحيوان السارح على وجه العراء، والسايح في لجتي الماء والهواء، تجد هناك سلسلة يتصل أعلاها بأسفلها، ويتحول بعضها إلى بعض حتى يرتد آخرها إلى أولها، بل ترى الأرض نفسها عرضة للطبيعة تغزوها بالسيول الجوارف، والرياح

النواصف، والأمواج التي تهاجم ثغورها، والزلازل التي تصدع صخورها، متعاقبة عليها ما تعاقب الليل والنهار، إلى أن يأتي يوم تنحل فيه الجبال وترسب في درك البحار، ثم لا تزال المياه تسحل وجه الأرض حتى لا يبقى فيه أمت ولا انحناء، وحتى يغمرها الماء من كل ناحية وقد عاد سطحها مستويًا تحت الماء كاستواء سطح الماء، فعادت كما كانت في أول خلقها ماءً غامر، وكون بائر، قد خلا من عالمي البر والهواء، ولم يبقَ فيه من نوات الحياة إلا عالم الماء.

هذا إذا لم تصب الأرض قبل ذلك بالهرم، وينضب ماؤها بعد خمود ما في باطنها من الضرم، ولم تنتشر هواءها فلا يتنفسه بعد ذلك نبات ولا حيوان، ولا يجد ذو جناح ما يعتمد عليه جناحه في الطيران، على حد ما تم من مثل ذلك في القمر، حتى لم يبقَ فيه وشل لمرتاد، وحتى تجرد من ثوب هوائه أو كاد، وحتى أصبح قفرًا هامدًا لا ينبت عليه شجر، ولا يتنفس فيه دابة ولا بشر، بل لو بقي هواء الأرض وهو خال من بخار الماء لجمد البرد سطحها تجميدًا، وانقبض الأحياء من وجهه حيث يقع شعاع الشمس عمودًا، ثم لا يزال بساطهم يزداد ضيقًا على توالي الحقب، إلى أن تموت آخر عشيرة منهم بالبرد والسغب، فتدفن الثلوج حيث لا تنكشف رممها إلا يوم التلاقي، وتخط يد القضاء على أديم الأرض سبحان الحي الباقي.

وهذه إذا لم تهرب فتنقلب نارها بردًا، ولكنه برد بغير سلام، فتهيم السيارات والأقمار من حولها في فضاء من الزمهرير والظلام، ويومئذ لا يبزغ الصباح، فيذهب آفاق المشرق ولا يقبل المساء فيخيم على أرجائه بجيشه المطبق، ولا يكون إذ ذاك كسوف ولا خسوف، ولا تبدو القبة الزرقاء بلونها المألوف، ولكنها تلتحف السواد حدادًا على عالمها بالأمس، وقد التف بكفن من الثلج فأوته منها إلى مثل ظلمة الرسم، ويومئذ تتجمد البحار فلا يكون ثمة موج يتنفس، ولا سحب يتبجس، ولا سيل يتدفق ولا جدول يتفرق، وتركد حركة الهواء، فلا تهب شمال ولا صبا، ولا تجري نسمة على الوهاد والربى، وأنى والشمس مصدر الحركة في العوالم، وقوام الحياة لكل قائم، فإذا هب الريح فالشمس هي التي تهب، وإذا دبّت النعم فالشمس هي التي تدب، فإذا انتشر الغمام فهي التي تنتشر، وإذا انهمرت الغيوث فهي التي تنهمر،

ألا وهي الشمس التي تجري في الأنهار، وهي التي تغرد في الأطيار، وهي التي تزهر في الرياض، وهي التي يسمع حفيفها في الغياض، وعلى الجملة، فالشمس هي روح الكائنات وفؤادها، وإذا ماتت الأفئدة فمحال أن تعيش أجسادها.

وقال من مقالة في وصف القمر:

بل هو مثال الرونق والجمال، وآية الأبهة والإجلال، إذا برز من الأفق فانهزمت من وجهه جيوش الظلماء، وانفجرت الكواكب لمرة في عرض السماء، فأقبل يتنقل بينها وهو يميز عزة وخيلاء، فسمت إليه الأبصار إعجاباً وإكباراً، وانصرفت إليه ابتهاجاً واستبشاراً، وانطلقت إليه النفوس نشاطاً وارتياحاً، واتسعت به الصدور انبساطاً وانشراحاً، وخلا إليه العاشق يتذكر وجه حبيبه، ولها به المحزون فسلاً عن حبيبه ونسيه، وآوى إليه المسهد فكان سميده في سهده، واتخذ المسافر رفيقاً فذهل به عن مخاوف سفره ومشقة جهده، وجلس إليه الشرب يتعاطون مثل الشمس في مثله، وتسائر بإزائه المتعاشقان يستبصران بنوره ويستتران بظله، وقد تخلل شعاعه نسج النسيم، حتى اتحد اتحاد الماء بسلافة النديم، فكان ألطف ما مر ببصر في ألين ما التحف بشر، فأسجل الشاهد أن ليله أصفى الأوقات، وأنه الجالي لأكدار النهار كما تجلى كدورة الظلمات.

لا بل هو مبعث الوحشة ومحرك الأشجان، ومثير هواجس الصدر وبلابل الجنان، إذا طلع في ليله وقد سكنت الأصوات، وسكنت الحركات ولم يبق إلا تموج الهواء باختلاف الأصوات الصوامت، وخفيف النسائم بين ورق الشجر المتخافت، فأرسل نوره الضعيف سابقاً في أنحاء الفضاء، مترقفاً على وجه الغبراء، تظهر من تحته الوهاد المنبسطة في العراء، والقمم الشاخصة في الهواء لا يمشي فيها حيوان ولا تسمع نامة إنسان، فوقف المتأمل أمام مشهد ذلك الجمود وقد ملكت عليه مشاعره حتى توهم نفسه أنه بمعزل عن الوجود، فتخيل ما حوله من الأرض مجاهل خالية أو أطلالاً بالية، بل تخيل الأرض كأنها يوم خلقت فهي أدغال وتنائف، وتصور نفسه آدمها وقد وقف فيها بين الدهش والمخاوف، فخيمت فوقه وحشة العزلة، وأحاطت بنفسه هيبة

الوحدة، وانبعثت الأشجان في صدره فتفرع لمناجاتها، وهاجت الذكر في نفسه فغاص بين تياراتها، وتوارد عليه من الخواطر ما حَبَّب إليه اللحاق بعالم الفناء، ثم استهواه ما يرى من جمال الطبيعة فتأثرت إليه الرغبة في البقاء، فتمنى لو اتخذ سبباً إلى هذا العالم المائل فوق رأسه، أو تعلق بما تدلُّ إليه من أشعة نبراسه، فربما تخيل أن هناك حدائق غلباء، ومدائن غناء، وقصوراً شاهقة، وأنهاراً دافقة. وأقواماً يمرحون في نعيم، ويرتعون في خصب مقيم، وما تمت لو يعلم إلا كَوْنُ جامد، وقفر هامد، وسكوت سائد، وحطام خلق بائد، لا يخطر هنالك غاد ولا رائح، ولا يسمع صوت باغم ولا صادح ولا يسبح طائر في السماء، ولا يدب حيوان على العراء، ولا يخضر واد ولا أكمة، ولا تحسب أذيالها نسمة، ولا ينتشر سحاب ولا ضباب، ولا يتفرق ماء ولا سراپ، ولكن جملة ما هنالك طلل داثر، وعالم من عوالم الدهر الغابر، بل جنازة يطاف بها حول الأرض، وإن لم تحملها المناكب، وقد صلت عليها السيارات فترحمت عليها الكواكب.

وقال من مقالة في وداع القرن التاسع:

من تأمل كرور الأدهار، وتعاقب الليل والنهار، ورأى الثواني تجرُّ الأيام، والأيام تجرُّ الأعوام، والناس يذهبون بين ذلك أفواجاً، ويمرون فرادى وأزواجاً، ورأى أن هذه الحركة التي ترى بها الشمس تطلع من المشرق، ثم تراها تغيب في المغرب، يتخللها من حركات دقائق الكون ما يمثل ديبب عوامل الفناء، حتى لا يرد كل منظور إلى عالم الهباء، وقف حائرًا دهشًا يتأمل في الكائنات وفي نفسه، وقد اختلط عليه الوجود بالعدم حتى كاد يتهم شواهد حسه، ثم نظر فتمثل وراءه ماضيًا تغيب أوائله في ظلمات الأزل، وأمامه آتياً تتصل أواخره بحواشي الأبد، وهو بينهما كنفاجة قذفها التيار فوق أديم البحر، فما كاد يقع عليها ضوء الشمس حتى عادت إليه فغاصت فيه آخر الدهر، فملكه من الرهب ما ارتعشت له أعضاؤه، ومن الإشفاق ما جمدت له دماؤه، ثم تمنى لو تحلَّص من هذا الوجود المشوَّه، وأيقن أن الكون ضرب من الزور المموه، إنما هي صور تتبدل. وأشكال تتحول، وهي المادة إلى أن تنحل الأرض، وينتثر نظام السيارات والأقمار، وتتبدد ذرات الشمس في الفضاء، فيمحي رسمها من صحيفة الأدهار.

ودعنا القرن التاسع عشر كما يوّدع المرء يومه عند انقضائه، وقد تذكر ما لقي بين صباحه ومساءه، وما تقلّب عليه من حالي كدره وصفائه، ثم استشف من خلال ليله المقبل وميض صباح الغد باسمًا عن ثغور الآمال، مبشرًا بما فاته في يومه من الغبطة ونعمة البال، فبات يعد نفسه المواعيد، ويرى كل بعيد من الأوطار أقرب إليه من حبل الوريد، وقد زهل أكثرنا عن أنه يودع شطرًا من دهره، وقد يكون من بعضنا أطيّب شطري عمره، فإذا التفت إلى خلفه رأى خيال نشأته وشبابه، وتمثلت له أوقات لذته ومجالس أترابه، والصفحة التي ارتسم عليها تاريخ ميلاده، ودون فيه تذكّار أبهج أعياده، فحن إلى أيامه السوابق، حنين المحب المفارق، وقد حيل بينه وبينها وطويت عليها صحيفة الفناء، وختم عليها بطابع الأبد فهي هناك إلى يوم اللقاء.

شعره

وقد رأيت أنه نظم الشعر في شبابه وقعد عنه في كهولته، على أن شاعريته ظاهرة في ما ظهر من شعره، وبين منظوماته ما جرى على ألسنة القوم مجرى الأمثال مع رغبته في كتمانها؛ إذ جمعه في كتاب بخط يده وضنّ على الناس بنشره، وهو لا يزال باقياً كما تركه؛ ومن أشهر شعره قصيدته السينية التي مطلعها:

دع مجلس الغيد الأوانس وهوى لواحظها النواعس

وأختها التي مطلعها:

تنبهوا واستفيقوا أيها العرب فقد طمى الخطب حتى غاصت الركب

والقصيدتان مهيجتان، اقتضتتهما بعض الأحوال السياسية في سورية من التحريض على النهوض، ولعل الفقيد حمل على نظمها بإشارة جماعة أو أمر رجل كبير، فجاء نظمهما بليغاً.

ومن قوله في النسيب والغزل:

إلا استباح الشوق هتك سرائري
باتت بليل من جفائك ساهر
أو لا فدتك حشاشتي ونواظري
إلا وحسنك كان عنه زاجري
وله كساني الذل بين معاشري
حتى خشيت به افتضاح ضمائري
وعلي عهد هواك لست بغادر
تهوى على الحاليين غير مغايري
أبدًا ولكن عنك لست بصابر
لك فيه بعض رضى فدونك سائري
إن صح عندك مطمع في الآخر
يا هاجري حاشاك أنك هاجري
وعساک في كلفي فديتك عاذري
يمسي المزور بها رقيق الزائر

ما مرّ نكرك خاطرًا في خاطري
وتصببت وجدًا عليك نواظر
بلغ الهوى مني فإن أحببت صل
قسما بحسنك لم أصادف زاجرًا
أو ما كفاك من الذي لاقيته
وضنى يكاد يشف عن طي الحشى
أخذت عيونك من فؤادي موثقًا
كن كيف شئت تجد محبك مثلما
صبري عليك بما أردت مطاوع
عذبت قلبي بالصدود وإن يكن
وأضعت عمري بالدلال وحبذا
كثر التقول بيننا وتحديثوا
وأطال فيك معنفي فعذرته
حسبي رضاك إذا مننت بزورة

ومن قوله في الحكم:

وناس بها قلب الخليّ متيم
توهم فيها لذة وهي علقم
أسود المنايا حولنا وهي حوم
ينادي علينا مسمعًا وهو أبكم
وأجفاننا في غفلة اللهو نوم
لساكنها من غارة البين تعصم
يناح عليه بعد حين ويرحم
تلوح عليها مدة ثم تهدم
ولم ننتفع بالحزن فالصبر أحزم

حياة أسر العيش فيها مذم
سقت كل قلب كل يوم مشاربا
وما الأرض إلا قفرة زارت بها
لها كل يوم بيننا كل منذر
تنبهنا بعضًا ببعض فتنتني
خلت دونها شمّ الحصون فلم تكن
وأصبح من قد كان يرهب بأسه
تراب من الأرض استوى تحت صورة
إذا ما دفعنا للبلية مرة

الشيخ إبراهيم اليازجي

جرى قدر المولى بما شاء واستوى
وليس لنا من مطمع فات نيله
وما كان ما لا بد منه مؤخرًا
وما الفرق في الحاليين إلا هنيهة
لديه جزوع في الأسى ومسلم
إذا كان ما نبغيه ما ليس يغنم
يهون لديه الرزء وهو مقدم
تمر سريعًا والقضا متحتم
ومن قوله في الحكم أيضًا:

وإنما نحن في دار إذا اعتبرت
في كل يوم أناس فوقها فجعوا
بئس الحياة التي ما زال واردها
حالان إحدهما مملوءة حذرًا
ليست سوى ماتم ناحت به البشر
على أناس طوتهم تحتها الحفر
يمازج الورد في كاساته الصدر
مما يليها وأخرى فاتها الحذر

ومن قوله في الرثاء:

أيها النائح المبكر مهلاً
شق من قبلنا الورى كل قلب
إنما نحن ثاكل وصرير
ليس أرضها لم يسقها صوب دمع
جاوز الأمر دمعك المستهلاً
ولقد كان لو شفى النفس سهلاً
ذاك يشقى وذاك في الترب يبلى
أو سماء لم يشجها نوح ثكلى

ومما جرى مجرى الأمثال، ويصح أن يكتب بماء الذهب، بيتان قالهما في معرض
رد على أحمد فارس الشدياق لما انتقد كتب والده وشد الطعن عليه، فقال الشيخ
إبراهيم:

ليس الوقية من شأني فإن عرضت
إنني أضن بعرضي إن يلمَّ به
أعرضت عنها بوجه بالحياء ندي
غيري فهل أتولى خرقة بيدي

ومن نظمه ليكتب على عود:

وعود صفا الندمان قدماً بظله
تعشقه طير الأراكة أخضرًا
وما برحت تصفو إليه المجالس
وحن إليه ريشه وهو يابس

ومن نكاته الشعرية:

تعجب قوم من تأخر حالنا ولا عجب في حالنا إن تأخرا
فمذ أصبحت أذناننا وهي أرؤوس غدونا بحكم الطبع نمشي إلى الورا

وكانت له قريحة في الرياضيات واطلاع واسع في علم الفلك، اتصلت بسببه مخابرات بينه وبين بعض كبار الفلكيين الفرنسيين، واشتغل في حل المشكلة الرياضية المشهورة، وهي قسمة الدائرة إلى سبعة أقسام، وتوصل قبل وفاته ببضع سنين إلى حل يقرب من الصواب كثيراً، بعث به إلى أكاديمية العلم في باريس، ولا نعلم ما صار إليه أمره، وكان عارفاً باللغة الفرنسية، وله إلمام بالعبرية والسريانية، ومشاركة حسنة في العلوم الطبيعية.

أعماله وآثاره

نظراً لما قدمناه من طبعه في التأنيق والإتقان، وتوحيه التآني والتدقيق، فقد جاءت ثمار قرائحه أقل مقداراً مما كان يرجى من مثله — كما قدمنا — فضلاً عن انصراف ذهنه في شبابه إلى الاشتغال بالحفر والرسم، على أنه خدم اللغة العربية من هذا الطريق خدمة ذات بال باصطناع حروف العربية في بيروت، وذلك أن الطباعة بالحروف الإفرنجية لم تكن تظهر بأوروبا بأواسط القرن الخامس عشر حتى اهتم أصحابها هناك باصطناع الحروف العربية، فاصطنعوا حروفاً طبعوا بها كتباً بالبندقية وروما وباريس ولندرا وأكسفورد وغيرها، ولكل منها تقريباً شكل خاص وإن تشابهت على الإجمال، ثم ظهرت الطباعة العربية في الآستانة، وحرفها يعرف بالحرف الإسلامبولي، ويشبه القاعدة التي تقرأها في هذه الصفحة.

وفي أوائل القرن الثامن عشر ظهرت الطباعة في سورية نقلاً عن حروف رومية، ثم جاء المرسلون الأميركيون إلى سورية في أوائل القرن الماضي، ولهم مطبعة عربية في ماطة أسسوها سنة ١٨٢٢م، وحروفها من حروف مطابع لندن، وطبعوا بها كتاباً بعناية المرحوم الشيخ أحمد فارس، ثم نقلوها إلى بيروت سنة ١٨٣٤م، وبعد انتقالها بأربع سنين اهتم مديرها — يومئذ — المرحوم عالي سميث باصطناع حروف جديدة، فاستخدم أحد كتبة الآستانة، فكتب له حروفاً جميلة سبكتها في لايبسك، وهي الحروف الأميركية المشهورة.

ولكن القاعدة الأميركية على جمالها ورونقها كانت كثيرة النفقة في اصطناعها؛ لكثرة أشكالها، والقاعدة الإسلامية تفضلها من هذا القبيل، لكنها تقل عنها من جهات أخرى، فعني الشيخ صاحب الترجمة سنة ١٨٨٦م بصنع قاعدة جديدة يجمع بها حسنات الحرفين، وهي القاعدة المعروفة بحرف سركيس؛ لأنها تسبك في مسبك خليل أفندي سركيس، صاحب لسان الحال في بيروت، وهي القاعدة الشائعة الآن في أكثر المطابع العربية في سورية ومصر وأميركا.

واصطناع هذه الحروف يحتاج إلى دقة ومهارة لا يعرف مقدارهما إلا من يعاني هذه الصناعة؛ لأن الحرف لا يتمثل للطبع إلا بعد أن يحفر على قضيب من الفولاذ حفرًا دقيقًا، ويقال له باصطلاح الطباعة «الأب»، ثم يضرب على النحاس ضربًا حتى يُطبع غائرًا في النحاس، ويسمونه - حينئذ - «الأم»، وعلى هذه الأم يصبون الرصاص فيخرج الحرف المعروف في المطابع.

فالشيخ كان يصطنع الأب من الفولاذ، ويضربه على الأم النحاسية، واصطنع هذا الحرف عدة أقيسة، ولما جاء القاهرة صنع حرفًا على قياس متوسط بين الحروف الكبرى والصغرى يعرف بحرف (بنط ٢٠)، وقد اتخذته مسابك القاهرة واصطنعوا له قوالب، وشاع استعماله في مطابعها، وبه طبعنا هذه الترجمة.

وأدخل في الطباعة العربية بعد قدومه مصر صورًا للحركات الإفرنجية، يحتاج إليها المعربون في التعبير عن الحركات الخاصة بها التي لا مقابل لها في العربية، ولما أرادت الحكومة المصرية صنع حروف مطبوعة بولاق سنة ١٩٠٣م على قاعدة مختصرة مفيدة كانت الأبصار متجهة إلى الشيخ؛ لأنه أقدر من يستطيع ذلك بالدقة والرونق، ولو فوضت إليه هذا العمل لأحسننت صنعًا، واستثمرت قريحته ثمرًا نافعًا للغة العربية على الإجمال.

أما آداب اللغة العربية فقد خدمها الشيخ خدمًا ذات بال بما ألّفه أو نَقَّحه أو انتقده أو وضعه في المصطلحات الجديدة، وإليك البيان:

فمؤلفاته أكبرها «الضياء»، وقد ظهر منه ثمانية مجلدات، وفيها مقالات في مواضيع شتى، من جملتها مقالات ضافية في انتقادات لغوية يحسن أن يعاد طبعها على حدة؛ خدمة لهذا اللسان، وهي:

(١) اللغة والعصر.

(٢) لغة الجرائد؛ فقد انتقد بها ما هو شائع في الصحف السيارة من الغلط اللغوي.

(٣) مقالة في التعريب، بيّن بها شروط التعريب، وتاريخ ذلك من صدر الإسلام.

(٤) أغلاط العرب القدماء.

(٥) اللغة العامية واللغة الفصحى.

(٦) أصل اللغات السامية.

(٧) نقد لسان العرب، وهو بحث طويل انتقد به الطبعة المتداولة من معجم لسان

العرب.

(٨) أغلاط المولدين، بيّن فيها ما وقع للمولدين من الغلط اللغوي في صدر الإسلام

إلى الآن، وفي جملة ذلك ما وقع للمرحوم والده، ثم ذكر ما وقع هو نفسه فيه من الخطأ في بعض المواضع.

فهذه المقالات وغيرها من الأبحاث اللغوية؛ كمقالتيه في المجاز والنبر في اللفظ العربي، وغيرهما مما ظهر في البيان والطبيب، لو جمعت لزد مجموعها على مئتي صفحة، وفي الضياء مقالات فلكية في القمر وحركاته، والزهرة والمريخ والمشتري، وقياس الأجرام السماوية، وما وراء نبتون، وتكوّن العالم الشمسي، وسعف الشمس، وغيرها مما يدخل في مئة صفحة أو مئتين.

ومن مؤلفاته التي ظهرت كتاب «نجعة الرائد» في المترادف والمتوارد من ألفاظ اللغة العربية وتراكيبها، في مجلدين.

وكان (رحمه الله) قد شرع من سنوات عديدة في وضع معجم اللغة العربية، يشتمل على المأنوس من كلام العرب الأولين، وعلى ما طرأ من موضوعات المولدين والمحدثين، مقتصرًا على الفصيح دون المولد، والمحدث في الاصطلاح، وسماه «الفرائد الحسان من قلائد اللسان»، وقد شغلته العوائق عن إتمامه، وكنا نحسب مواده مجموعة كلها أو بعضها، فإذا هي تعاليق على حواشي الكتب وبعض المذكرات في أوراق متفرقة، لا يستطيع جمعها أو تأليفها سواه، فذهب الأمل بظهور ذلك الكتاب المفيد.

أما ما صححه من الكتب، فأهمها ترجمة التوراة اليسوعية التي تقدم ذكرها، وفيها خدمة كبرى في ضبط لغة المسيحيين لاكتساب الملكة الصحيحة بمطالعتها من صغرهم، ومما صححه وهذب عبارته تاريخ بابل وأشور، تأليف جميل أفندي مدور، ونفح الأزهار في منتخبات الأشعار، ودليل الهائم في صناعة الناثر، والناظم للمرحوم شاعر البتلوني، وعقود الدور في شرح شواهد المختصر، للمعلم شاهين عطية، ورسالة الغفران، غير ما صححه أو اختصره أو شرحه من كتب المرحوم والده؛ كمختصر نار

الشيخ إبراهيم اليازجي

القرى، ومختصر الجمانة لمطالع السعد، ومطالع الجواهر الفرد، والعرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب، وغيرها.

ومن آثار علمه أنه انتقى ألفاظاً اصطلاحية لما حدث من المعاني العلمية بنقل العلوم الحديثة إلى اللغة العربية بما عُرف به من سلامة الذوق في اختيار الألفاظ، وهك أمثلة من ذلك مرتبة على أحرف الهجاء مع أصولها الفرنسية:

Chimpanzé	الشمبزي	Cravate	الأربة
Police	الشحنة	Assurance	الاستعهاد
Armoiries	الشعار	Plombagine	الأسرب
Brosse	الشعرية	Bacilles	الأنوبيبات
Fuseau	الضلع	Dot	البائنة
Colonie	الطارئة	Milieu	البيئة
Cutta-Percha	الطبرخي	Phosphorescence	التألق
Vernis	الطلاء	Acclimatation	التلديد
Cadre	الكفاف	Balcon	الجناح
Vavle	اللهاة	Phonograph	الحاكي
Vis	اللولب	Soupe	الحساء
Tragédie	المأساة	Myopie	الحسر
Vibrions	المتمعجات	Cocher	الحوذي
Révue	المجلة	Bicyclete	الدراجة
Granit	المحطب	Écran	الدريئة
Imperméable	المصلد	Microcoque	الذيريرات
Buffet	المقصف	Bactéries	الراجبيبات
Guillotine	المصقلة	Rhumatisme	الرثية
Douche	المنضحة	Torpille	الرعاد
Ressort	الناضب	Tache (du soleil)	السفع
		Poratonnerie	الشاري

تراجم مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر (الجزء الثاني)

ومن هذا القبيل وضعه «النوام» لمرض النوم الذي حدث في إفريقيا مؤخرًا، و«المداد» القلم الحبر المشهور، وغير ذلك مما يصعب حصره.